وطن بقلم رصاصة

محمود درويش

● كانوا يقدمون له هدية السنة الجديدة . كانوا يزفون له بشرى : سينقل من غرفة التعذيب الى الزنزانة . مسيح بلا مسامير . وفي الجدران نافذة صغيرة تطل على بحر .

لم يكن له زمن من قبل . الآن يرسم خيوطا صاعدة هابطة ، وفقا لقدرة أصابعه التي صارت بلا أظافر . خيوط هابطة صاعدة يلتقي بعض أطرافها، سهوا ، ليشكل افتتاحيات دوائر . وعلى سطح البحر نسمة تمارس اللعبة اياها . لم يكن له زمن من قبل . والآن يعرف : هنا الساعة الاولى من اليوم الاول ، من الشهر الأول ، من العام الاول .

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ أنتقل من مكان آخر الى .. زمن آخر .

ـــ وماذا يعني هذا الانتقال ؟

ـــ يعني أني أبدأ . أتحكم بالدوامة .

ـــ ولكنك لم تنتقل . السجانون هم الذين نقلوك .

ـــ هذا لا يغير شيئا . القيد يصقل الزند . وهكذا أعرف .

ـــ ماذا تعرف ؟

ـــ ان العصافير ليست حرة . وان الوطن يولد في منفى . اني أروض حالتي والتصق بالبعيد . وزندي يتحرر في قيدي .

● وكان الوطن كقدم طفل ، محبوسا في حذاء حديدي . وكان سرحان لا يعرف أكثر من ذلك . هذا يكفي ـــ كان يقول . لأن الاعتراف بما هو أبعد يفيد المحققين ويوسع العبارة .

كانوا ينقبون كل ذرة من ذرات كيانه ، ويدخلون الانابيب الدقيقة الحادة في مسام جلده ، بحثا عن فكرة الوطن . وحين كانوا يتعبون من النزهة في الجسد الضعيف ، كانوا يسدون المسام المتسعة بافتتاحيات صحف تحتج على الانتهاك ، ثم يغطونها بطحين جاء من كندا ، ويخبئون الجسم كله ، بما فيه من أسرار وغابات ، بقماش متبرعين يحبون الكلاب ويعطفون على الناس المساكين .

كان الوطن كقدم طفل . وكانوا يبحثون عن الفكرة بين المفاصل . وسرحان لا يفهم ولا يعترف لانه ، فعلا ، لا يعرف . « اذهبوا الى الخارطة واتركوني » . ولكن حين أقاموا له خيمة في الزنزانة حولها الى خارطة . وكانت هوامشها يوميات . قالوا : « في الجنة أيضا تجد خيمة » . قال : « في الجنة أيضا أحولها الى خارطة ، وهوامشها مرثيات » .

لم يجدوا الفكرة في لحمه المتفتت بين أصابعهم . كانوا يرسمون على جسمه خطوطا هابطة صاعدة تلتقي أطرافها في دوائر تشكل خارطة . صرخوا من الالم كأن الخطوط